الحضارة بين المفهوم والايديولوجيات

د.نصيرة بلبول نجوى بلبول

جامعة الجلفة

ملخص

عرض مفهوم الحضارة ككلمة أو كحالة إجتماعية عاشتها المجتمعات لا يخرج عن المفاهيم التقليدية التي تركز على أهم الخصائص والمميزات والانجازات المحققة ورغم ذلك فحاجتنا لضبط المفهوم وكيفياته وحيثياته تظل ضرورة أمام ما نشهده من اختلافات وصراعات، فضبط المفهوم بمقاربته الواقعية تحملنا إلى الإقتراب من حقائق المجتمعات من جهة ومن جهة أخرى تمكننا من توظيف المفهوم بما يخدم الحوار كمبادرة تحتوي السلبيات والايجابيات دون إقصاء لأي خصوصية ، وهذا بالضبط ما يساعد مشروع إنساني مهم كحوار الحضارات والثقافات نحو تفعيل ضمن السياق الصحيح والمناسب لكل الشعوب والمجتمعات.

الكلمات المفتاحية: الحضارة – المجتمعات - المفاهيم – التقليدية -الحوار

abstract

The presentation of the concept of civilization as a word or as a social condition experienced by societies does not deviate from the traditional concepts that focus on the most important characteristics ;achievement however ;our need to control the concept ;its qualities and its meanings remains necessary in the face of the differences and conflicts that define the concept by its realistic approach .the other side enables us to use the concept to serve the dialogue as an initiative containing negatives and positives without exclusions of any specifity.this is precisely what helps a humanitarian project ;such as the dialogue of civilizations and cultures,to activate within the right and appropriate context for all peoples and societies.

تمـهيد

إن البحث في ماهية الحوار والتواصل تعتبر الخطوة الأهم من أجل تسطير المسار الحقيقي الذي يخدم مشروع حوار الحضارات والثقافات ، ولتكن البداية من البداية ونقصد بذلك عرض مفهوم الحضارة لما يحمله من دلالة وبعد يسهم في تحديد الأهداف المرجوة دون إغفال إسقاطات الحوار مع الواقع المعاش ، فموضوع حوار الحضارات يطرح جملة من المفاهيم التي لا يمكن تجاوزها ، ولكل واحد منها دور في تحريك العملية الحوارية سواء أكانت نحو البناء والتأسيس أو نحو الصراع والإلغاء.

2- الحضارة اصطلاحا:

أول استعمال للفظ حضارة أكاديميًا كان في القرن 19م عندما ذكرت لفظة حضارة في قاموس الأكاديمية الفرنسية سنة 1825م ، وهي عكس التوحش، ويرى مالك بن نبي[1] في الحضارة أنها حماية للإنسان ، لأنها تضع حاجزا بينه وبين الهمجية . وأنها مجموع الشروط[2] الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع ما أن يقدم لكل فرد من أفراده في كل طور من أطوار وجوده المساعدة الضرورية ، فهي نتاج فكرة جوهرية تطبع على مجتمع ما في مرحلة ما قبل التحضر الدمغة التي يدخل بها التاريخ ، وهذه الحضارة تتجذر في محيط ثقافي يحدد سائر خصائصها التي تميزها عن ثقافات وحضارات أخرى . أما ابن خلدون[3] فيرى أنها التفنن في الترف ، واستجابة أحواله ، والكلف بالصنائع التي تؤنق من صنوفه، والحضارة تكون عند انتهاء الدولة ، ومن مفاسدها الإنهاك في الشهوات ، والاسترسال فيها لكثرة الترف . وكأنّ ابن خلدون في هذا التناول للحضارة يتكلّم عن سلبياتها أو بصورة

أكثر دقة عن نهاية الحضارة ، وهو ما عبّر عنه المؤرخ الألماني **شبنجلر**[4] بانتهاء الحضارة إلى – المدينة – فهو يرى أنّ مرحلة النّمو والحيوية ، فإذا وصل الأمر إلى مرحلة الحضارة فهي النهاية . وسبب اهتمام ابن خلدون بالدولة أوصله إلى ربط الحضارة بها ، والحضارة أوسع من الدولة عنده .

ويتضمن التاريخ الكثير من الحضارات التي أنتجها الإنسان ، وهي تشير إلى رقي الإنسان وتدل على مدى تمكنه في الإبداع والإنتاج ، وقد ذكر المؤرخ والفيلسوف البريطاني أرنولد توينبي 1889م-1975م أن التاريخ عرف منذ القدم إلى اليوم ستة وعشرون حضارة ، أبرزها إحدى وعشرون حضارة ، لم يبق منها إلا خمس حضارات هي الحضارة المسيحية الغربية ، الحضارة المسيحية الشرقية ، الحضارة الإسلامية ، الحضارة الهندية ، حضارة الشرق الأقصى ، غير أن إحصاء توينبي لعدد الحضارات ليس متفقًا عليه لأن الباحثون اختلفوا حول عددها عبر التاريخ ، **كويجلي** يناقش بأنّ هناك ستّ عشرة حالة تاريخية واضحة وثماني أخرى من الحالات غير المؤكدة ، أمّا **شبنجلر** فيحدد ثماني حالات كبرى ، ماكنيل يطرح للنقاش تسع حضارات في التّاريخ كلّه ، باجباي أيضًا يرى تسع حضارات كبرى أو إحدى عشرة إذا تميّزت اليابان والأرثوذكسية عن الصين والغرب ، **برودويل** يحدد تسعًا ، وروستفافي سبع حضارات كبرى معاصرة ، تعكس هذه الاختلافات في التحديد لعدد الحضارات الارتباك المنهجي في تحديد المفهوم وعجزه عن تمييز مفهومي الثقافة والحضارة تمييزًا واضحًا.

ويعرف ول ديورانت 1888-1981م الحضارة " بأنها نظام يعين الإنسان على الزيادة في إنتاجه الثقافي"، والعوامل التي تكوّن الحضارة عنده هي:

1- نظام سياسي يسود الناس .

2- وحدة اللغة .

3- إتفاق في العقائد و الإيمان بما هو كائن وراء الطبيعة .

4- تربية لنقل الثقافة على مر الأجيال .

الحضارة هي ثمرة كل جهد يقوم به الإنسان لتحسين ظروف حياته سواء أكان المجهود المبذول للوصول إلى تلك الثمرة مقصودا أم غير مقصود ، وسواء أكانت الثمرة مادية أو معنوية . نلاحظ من خلال التعريفات في مجملها إلى مدى ارتباطها بالتاريخ ، لأنها ترى في الحضارة نتاج لعوامل تاريخية ، وكما أن ثمر الزرع والأشجار لا يطلع إلا بفعل الزمن، إذ لا يمكن أن تزرع وتحصد ثمرة ما في نفس الوقت ، فإن ثمار الحضارة لا تظهر إلا بإضافة عنصر الزمن إلى جهد الإنسان .

الدورة الحضارية

رغم ما لأهمية التاريخ في تكوين الحضارة باعتباره عنصرا مهما في تحفيز التراكمات المعرفية وتقويم فاعليتها تجاه مسار يجعل أثرها مسطرا نحو ما أصطلح على تسميته بالحضارة ، إلا أن تركيزنا على التاريخ في دراستنا جاء كمرحلة أولية مؤقتة الهدف منها الاستقصاء التاريخي للمعلومات والمفاهيم الخاصة بموضوعنا " الحضارة "، والعلاقة بين التاريخ والحضارة هي علاقة ترابطية حسب المؤرخ" فرناند برودويل" 1902-1985 فدراسة حضارة ما تتطلب قراءة عميقة لتاريخها ، من أجل الوقوف على عوامل

تكوينها وبنائها أو العكس ، خاصة وأنّ أغلب المنظرين للحضارة على اختلاف اتجاهاتهم يتفقون على كونها مرحلة أو دورة تمر بها المجتمعات ، فمالك بن نبي مثلا يعرض هذه الدورة ، ويرى أنها تبدأ قوية مندفعة عندما تسيطر الروح أو العاطفة الصادقة والشعور الجماعي القوي لتنفيذ فكرة ، وهذه الروح تضبط الغرائز الدنيوية ، ثمّ تبدأ مرحلة قطف ثمار هذه الحضارة من التّمدن وازدهار العلوم والفنون . وفي هذه المرحلة تبدأ الغرائز في التّغلب شيئا فشيئا، ويسميها مرحلة العقل ، لتصل إلى المرحلة الثالثة وهي مرحلة الانحطاط وتفكك العلاقات الاجتماعية ، ويتحوّل العلم إلى علم انتفاعي ، يعيش أصحابه على حساب الجهل المنتشر ويسميها مرحلة الغريزة ، ثمّ يدخل الإنسان بعدها مرحلة (ما بعد الحضارة) وهي أسوء من مرحلة (ما قبل الحضارة) ، لأن هذه الأخيرة يكون الإنسان فيها على الفطرة أو هو مهيأ لدخول حضارة . وبهذا يعطي مالك بن نبي لهذه الدورة الحضارية مراحل وفق مقومات معينة ، لتنتهي عنده إلى مرحلة تصل إلى ما بعد الحضارة ، والتي يكون فيها الإنسان على الفطرة ، هذه المرحلة حسب مالك بن نبي قد تكون بداية لتأسيس حضارة أخرى ، وهكذا تستمر الدورة الحضارية عنده .

وفي هذا الشأن الخاص بتكوين الحضارة وبناءها نجد أنّ هربرت ماركوزه في تناوله لموضوع الحضارة من خلال كتابه "حب الحضارة " يرى أنّ تاريخ التّطور الحضاري الذي وصل إلى أعلى مرحلة في أوروبا ، لم يسمح حتى الآن بخلق عالم متحرر حقيقة ، من الضروري للحضارة الإنسانية أن يكون هناك قمع منظّم للغريزة ، ومبدأ واقعي بهذا الخصوص ، فهو يرى أن الحضارة الأوروبية حضارة قمعية بسبب السيطرة والاستغلال، ويوظف هنا صياغة " القلق داخل الحضارة " فهو يعتبر أنّ الحضارة تأخذ من الغريزة الجنسية قسطًا كبيرًا من طاقتها وتوجهها نحو غايات نافعة للمجموع ، وهي بهذا تُضيّق الخناق على الحياة الجنسية والحضارة في نفس الوقت .

التركيز في تناولنا للحوار الحضاري يتمحور حول النتائج والتطلعات التي نهدف لها من خلاله ، ونحتاج إلى رصد الواقع دون إلغاء للتاريخ ، بالعكس فالتاريخ يعتبر مرجعية وأساس ضروري لا نستطيع إلاّ تناوله وطرحه ، محاولين بذلك الإلمام بمشروع إنساني على اثر طرح موضوعي خال من أي توجهات من شأنها أن تحيد بمبادرة مشروع الحوار الحضاري، لذلك فالتأمل في مكامن المفهوم الحضاري يصب مباشرة في التدقيق نحو المعالم الحضارية التي أنشئها وينشئها الإنسان.

التاريخ يساهم في إعطاء صورة كاملة لحد ما عماّ عايشه أجدادنا ، كما أننا استخرجنا منه المسار الذي سلكته المفاهيم والمصطلحات ، والتاريخ يعطيك صفحات تلمّ بالانتصارات والخيبات التي مرت بها الإنسانية ، فهو بنك التجارب والمعادلات والمكتسبات والتضحيات، وكل التفاعلات الإنسانية بكل أبعادها وصورها، فهو يختزل الزمن ، ويفتح لنا إمكانية استخراج الوصفات والتركيبات المناسبة لما نعاصره ، وما الحضارة إلاّ بناء يلخص تجارب الإنسان الناجحة للوصول إلى تشييد صرح لأفراد مجتمعه[5] ، الذين

يعيشون فيه ينتجون ويستهلكون منه ، وتستمر السيرورة محاولين الحفاظ على انتاجاتهم ، غير أن هذه المحاولات لها آجال ، تتحدد حسب معطيات ذاك الزمان والمكان ، وهذا الترقب للآجال والاستغراق في البناء الحضاري كان السبب المباشر في فتح مجال الدراسات من أجل استمرار الحضارة ولعل هذا الإصرار نحو الاستمرار سبب في تكون اتجاهات تدعو إلى القضاء على الآخر لضمان بقائه ، والقضاء على أي طموح عند الآخر في محاولة تكوين حضارة جديدة.

الحضارة عند مالك بن نبي

تناول المفكر مالك بن نبي مفهوم الحضارة واعتمد في ذلك على الأخذ بجانبها التاريخي والثقافي والاجتماعي والنفسي والوظيفي ، فالحضارة من الناحية التاريخية عند مالك بن نبي هي تكررها بصفتها ظاهرة في التاريخ الإنساني ، وهي عبارة عن تنظيم معين للمجتمع على قواعد أخلاقية يجعله يبلغ مستوى القدرة على مواجهة جميع أعبائه بواسطة وسائل تعد منقوصة على وجه الإجمال ، إذا قارناها بالوسائل التي تقع في حوزة بلدان أخرى نامية. وتحدد تلك القواعد الأخلاقية خصوصيات تلك الحضارة وتميزها عن غيرها ، وليست هذه القواعد في جوهرها سوى الفكرة الدينية التي سبق أن اعتبرها مالك بن نبي المركب الذي تتولد عنه الشرارة الباعثة للحياة في باقي مكونات الحضارة

الحضارة ليست كل شكل من أشكال التنظيم للحياة البشرية في أي مجتمع كان ، ولكنها شكل نوعي خاص بالمجتمعات النامية ، بحيث يجد هذا الشكل نوعيته في استعداد هذه المجتمعات لأداء وظيفة معينة ، ليس المجتمع المتخلف في حالة تكيّف معها لا من حيث رغبته، ولا من حيث قدرته ، وبعبارة أخرى لا من حيث أفكاره ولا من حيث وسائله ، مع انخراط قوى المجتمع كلها في التوجه نحو هدف مدروس ، وبدرجة عالية من الفاعلية ، لأن إرادة المجتمع وقدرته تضفيان على وظيفة الحضارة موضوعية وفاعلية ، أي أنّ جملة من العوامل المادية والمعنوية اللازمة لتحقيق تقدم الفرد، تصبح موضوعية وتتحول إلى سياسة وتشريع ، فيمثلان عالم الأفكار في هذا المجتمع على الصعيد الاجتماعي والأخلاقي تمثيلا مباشرا .

الحضارة تعتبر عند مالك بن نبي تبادل وتوازن بين مصالح الفرد ومصالح المجتمع[6] ، بحيث تتنظم هذه المصالح وفق شروط أخلاقية تمليها ثقافة المجتمع ومكونات ضميره ، و شروط أخرى مادية تفرضها الخطة الموضوعة لصعود المجتمع في سلم التطور، وهو ما يجعل الحضارة في الواقع جملة من العوامل المعنوية والمادية التي تتيح لمجتمع ما أن يوفر لكل فرد من أعضائه جميع الضمانات الاجتماعية اللازمة لتقدمه ، فالحضارة عنده في أبسط تعريفاتها ليست (كومة) من الأشياء المختلفة والمتنوعة ، وإنما هي (كل) منسجم من الأشياء والأفكار، ومن العلاقات والمنافع والمسميات، وهي بناء وهندسة وتجسيد لفكرة أو مثل أعلى ، ولذلك فلكل حضارة في التاريخ سماتها المميزة ، وكل دورة محدودة بشروط نفسية زمنية خاصة بمجتمع معيّن فهي حضارة بهذه الشروط ، ولهذا فمن المنطقي أن الحضارة هي التي تكوّن منتجاتها وليست المنتجات هي التي تكوّن الحضارة ، إذ

من البديهي أنّ الأسباب هي التي تكوّن النتائج وليس العكس ، وعلاوة على ذلك فإنّ الحصول على جميع منتجات حضارة ما ، عملية مستحيلة في حد ذاتها كمًا وكيفًا ، وهي لو تحققت "جدلا " فإنها لا تصنع حضارة ما ، لأن الحضارة لا تبيعنا روحها وأفكارها وثرواتها الذاتية وأذواقها ، وهذا الحشد الهائل من الأفكار والمعاني التي لا تلمسها الأنامل ، والتي بدونها تصبح كل الأشياء التي تبيعنا إياها فارغة دون روح ويُغَيّر الهدف . فلا نستطيع استيراد آلة معقدة ونضعها بين يدي إنسان متخلف ، ولكن الحضارة تبدأ من داخل ثقافة الأمّة " فالعلم الإسلامي لا يستطيع أن يجد هداه خارج حدوده".

لم يخرج مالك بن نبي في تقديمه لماهية الحضارة عن إسقاطات واستنباطات الواقع وسعى خلال طرحه لتجاوز التناولات الكلاسيكية وذلك من خلال تقديم الكيفيات والحيثيات التي من شأنها المساهمة في البناء من عدمه ، وفي هذا السياق يسهم غاندي بمفهوم آخر للحضارة من حيث أنّها لا تقوم على مضاعفة الحاجات وإكثارها، بل على العكس ، تقوم على تقليصها بوعي وإرادة....إنّ إرادة خلق عدد غير محدود من الحاجات من أجل العمل على تلبيتها فيما بعد، ليس سوى تتبع ريح.. وأنا لا أضع أي حد دقيق يفصل الاقتصاد عن الأخلاق لشدة ما قمت بهذا التمييز.

الخصائص العامة للحضارة متمثلة في كونها صفة لصيقة للمجتمع البشري ، بعض النظر عن نمطها الذي تمتاز به إن كان بدائيا أو متطورا ، وان كان طابعها دينيا أو زراعيا أو صناعيا ، لابد لها من أن يكون لها وسط بشري تشيع بين أفراده وتزدهر، كما أنها مركب كلّي تتظافر الوحدات فيه فيما يسمى بالسمات الحضارية التي تكوّن كل مجموعة منها تعرف باسم النمط الحضاري . فالحضارة هي مساهمة مجتمعية ، يتفاعل فيها أعضاء المجتمع نحو إنتاج تتكاتف فيه مجهودات جماعية أو فردية تخدم المجتمع ورقيّه.

يسعى الإنسان دائما إلى تحقيق حياة أفضل ، ويبذل مقابل ذلك كل معارفه ، فالحضارة ترجمة لهذه الحقيقة ، لذلك فإن مبادرته نحو السعي الجاد إلى توفير الاستقرار وسبيل العيش الكريم هي عبارة عن روافد لتغذية البناء الحضاري ، ومن هذا المنطلق ظهر من العلماء من قام بتفسير قيام الحضارات على اثر العوامل البيئية ومساهمتها في إثراء فكرة الفروقات وتكوين الحضارات ، غير أن توينبي يرى بأن البيئة وحدها ليست العامل الأساسي في قيام الحضارات النهرية . حيث أنه توصل في أبحاثه أين قام بتناول إحدى وعشرون حضارة ودرسها دراسة شاملة مقارنة ، و خرج بنظريته القائلة بأن حركة التاريخ لا تعود إلى البيئة الجغرافية ، ولا تعتمد على الأجناس وإنما هي نتيجة موقف الجماعة مما يقابلها من تحديات و نوع ردها عليها أو استجابتها لها . وتعتبر هذه الفكرة التي طرحها أ توينبي هي أهم ما تتمحور حوله نظريته بخصوص بداية و نهاية الحضارات، والتي تدخل ضمن دورة أو مراحل الحضارات التي تكلمنا عليها سابقًا ، وهي من أكثر المحاور استفزازًا ونفورًا عند الغرب خاصة وأنهم يعتبرونها تشكل تهديدًا على حضارتهم ، لأنّها تساهم في التوجه

نحو الطروحات والتنبؤات التي تبشّر بفرض انتهاء وزوال حضارتهم.

يُعتبر توينبي من المؤرخين الذين ارتكزوا على مبدأ الوحدة البشرية ، وإعطاء قيمة لكل حضارة مهما كان نوعها وتصنيفها ، كما أنّه قام في دراسة الحضارة الغربية من خلال باقي الشعوب وليس العكس ، وربما هذا التّناول هو الذي جعله يُبقي في تصنيفه على خمس حضارات وهي: الحضارة المسيحية الغربية ، الحضارة المسيحية الشرقية ، الحضارة الإسلامية ، الحضارة الهندية ، وحضارة الشرق الأوسط .

إنّ الحتمية التاريخية التي كانت من ضمن أفكار توينبي في تناوله للمقاربات الحضارية هي نفسها التي تساعدنا في استخلاص حقائق حول هذه الحضارات ، خاصّة وأنّه اعتمد على الحضارة اليونانية والرومانية كمقياس أسقطه على باقي الحضارات ، و ركز في طرح محوره تسييد الغالبية العالمية لتكريس فكرته القائلة بالوحدة البشرية عوض حصرها في حدود جغرافية لحضارة معينة ، ولعلّ هذا المنطلق التوينبي جاء ضمن عملية يسعى من خلالها التخفيف من التمركز الحضاري الغربي ، غير أنّ الواقع بعيد عن المثاليات والحتميات التي قد تكون قاصرة في توظيفها ، لأنّ إدراج مثل الحضارات التي ذكرها توينبي قد يصبح مقبولًا ولكن بتصنيف يسند الريادة أو صفة المركز للحضارة الغربية حيث هو الواقع ، فلا بد على الباحث دائمًا الفصل بين ما كان ، وما هو كائن .

إنّ مثل هذا الطّرح لا نريد به الدّخول في جدلية تتداول موضوع الحضارة والحضارات، ولا نتجه نحو تحيّز يلغي الأطراف ، وإنّما هو ضبط للمفاهيم وفق إسنادات علمية ونظرية متوافقان ، لنتمكن من رصد الواقع ورسم معالمه بوضوح ، ويتم على إثرها الانطلاق من خلال مرجعيات تقضي على الجدل ، قوامها الاتفاق لتصبح قاعدة يقر بها الجميع ، وعلى هذا النحو الاعتماد الواقعي الموضوعي هو الطرح الذي يوفر البناء الأمثل لذلك.

الحضارة والثقافة

الحضارة تعبّر عن صنائع الإنسان وإبداعاته وإنتاجاته وتختصر مدى فهمه للطبيعة وتمكنه منها ، فالحضارة هي انتصار الإنسان ونجاحات يجسدها الإنسان بعد رحلة طويلة من الكفاح مع الظروف على اختلافاتها الطبيعية والفردية والاجتماعية ، فيتأرجح بين التقدم والركود وحتى التراجع أحيانا ، إلى أن يصل لمرحلة الحضارة ، ومن بين كمية المرادفات و التعريفات للحضارة والتي هي كثيرة ، و يتم التركيز على تلك التي من شأنها التأثير المباشر على الحضارة في جميع مراحلها ، وعلى اختلافها وتنوعها ، والحاضرة حتى بعد زوال الحضارة وهو مفهوم الثقافة أين تغاضى كوكبة من العلماء على الفصل بين المفهومين واعتبارهما يتضمنان نفس الدلالة وقولنا حضارة أو ثقافة عبارة عن مفهوم واحد مؤداه واحد، من هذه الإزدواجية المتداخلة جداً تاريخياً وبنائيًا بدأ الجدل الذي يظهر عندما نتناول موضوع الحضارة كما يظهر عندما نتناول موضوع الثقافة، حيث ظهر اللبس بينهما وصعب وضع حدود بينهما حتى وقتنا الحالي، لذلك تجد بين القائلين من يتكلمون عن حوار حضاري حيناً، وعن حوار ثقافي حيناً آخر، ومن هذا المنطلق وجب علينا المرور على ما شهده مفهوم

الحضارة من تشابه وتداخل مع الثقافة، ومن خلال الأعمال والدراسات المقدمة في هذا المجال الذي عرف اهتماما لا بأس به من طرف العلماء والدارسين، الهدف منه هو بلوغ تجلّي واضح يضع كل مفهوم في إطاره الصحيح دون الوقوع في الالتباسات التي من شأنها الحياد عن مسار المفهومين.

عند تناول "ارنولد توينبي" لمعنى الحضارة على أنها ثمرة تحدي البيئة للإنسان ونوع استجابته لها ، أثار جدلا طويلا حول العلاقة بين الثقافة والدين ودورهما في البناء الحضاري وذهب توماس سيرنز إليوت 1888- 1927 في كتابه "ملاحظات نحو تعريف الثقافة" إلى أنّ الثقافة هي تجسيد لدين شعب . إنّ هذا الربط البارز بين الدين والثقافة والحضارة يكاد يكون في أغلب التناولات الكلاسيكية والحديثة ، بسبب منطلقات الواقع التي تُجسّد هذا الترابط القائم في الماضي والحاضر، إنّ أقدم وأعرق حضارة عرفتها البشرية وهي الحضارة المصرية ، التي قامت أسسها على العقيدة الدينية ، وما كان نشاط الإنسان المصري القديم إلاّ موجّها لخدمة الملك الإله ، ولذلك كانت حياته كلّها وقفًا على خدمته وإرضاءه ، والنيل من خبراته ونعمائه ، ولعلّ من هذا المنطلق كان بناء الأهرامات عالية وضخمة ، كالمقابر للملوك والآلهة ، وسكنى له بعد عودة الروح للجسد في الحياة الأخرى ، وتلك ميزة تفرّدت بها الحضارة المصرية القديمة من بين الحضارات الأخرى في إعلائها لشأن الحياة الأخرى ويبدو أنّه كلما تأصّلت وتعمّقت هذه الحضارة في نفس الشعب كما كان التعبير عنها واضحًا جليًا . إنّ تأثير الدين يكون واضح المعالم على حياة الأفراد في بساطتها وتعقيدها.

يعرض ر.غارودي تأثير الدين وتناوله عند الإنسان الواحد البعد ، الذي بدأ المذهب العقلي السقراطي يرسم خطوطه الأولى يزداد تأكدًا في مغامرة عصر النّهضة ، وأنّ نقطة تطبيق هذا المذهب العقلي هي إرادة الرّبح والسيطرة التي تميّز الرأسمالية النّاشئة... ومنذ ذلك الحين جاء بُعد الدين الذي يُبشر بالصّبر، دين ضمني قوامه تحريض الرّغبة تحريضًا دائمًا. وقد أصدر غارودي حكمًا حول طبيعة الحضارة الغربية التي تتشكّل في اتجاه البعد الواحد، وأعطى لها اعتماد الرّأسمالية قلبًا وقالبًا التي تقضي على المضامين الكلاسيكية للمسيحية ، من خلال تحديثها وإعادة بعثها وفق طرح يخضع لقواعد النّظام الرأسمالي، وجعلها قائمة على ثلاث موضوعات هي :

1. تحيل الإنسان إلى العمل والاستهلاك.
2. تحيل الفكر إلى الذكاء.
3. تحيل اللانهائي إلى الحكم.

إنها حضارة مؤهلة للانتحار ، انتحار لفقدان الهدف يشهد على ذلك ضروب الفرار إلى المخدرات وانتحار المراهقين بأعداد أكبر في الأصقاع الأغنى، انتحار لإفراط الوسائل ويبرهن على ذلك مثلاً المنظور الجائر لنضوب المصادر الطبيعة والتّلوث ، وذلك نتيجة لازمة لتصور لا يرى في الطبيعة شيئًا سوى أنها مستودع ومعمل لمعالجة القمامة ، والمنظور بتصرّف بوسائل هدم الحضارة بهذين الاعتبارين ، والموضوعة الثالثة في حضارتنا الفاوستية هي موضوعة ما أُسمية بالرجوع إلى عبارة " هيغل" موضوعة رجحان " اللانهائي السيئ " أعني اللانهائي الكمي وحسب

، أي الاعتقاد بإمكانية لا نهائية في النمو باعتباره نموًا كميًا صرفًا في الإنتاج والاستهلاك .

بهذا التّناول يقوم روجي غارودي بطرح أصبح مألوفًا من حيث كونه يعرض حلقة حضارية في تشكلها وانحلالها ، وكأنّها أصبحت قاعدة لم يتجاوزها العلماء ، بل يركّز كل واحد منهم على وجودها وعلى كونها جزئية خاصة بالحضارة ، وقد يساعدنا مثل هذا الطرح في تصنيف مكانة الدول ضمن الحراك الحضاري وتحديد مرتبتها وفقًا إلى ما سلف فإنّه يمكن اعتبار الحضارة الغربية حضارة العصر لما تمتلكه من مقومات تؤهلها إلى ذلك، لكنها قامت على أساس طرح جدلي قوي حول الدين بين الإلغاء والاعتماد، وإن كان طرح الإلغاء والإقصاء جاء أقوى بالنظر إلى الإسنادات التاريخية من جهة، والتطور العلمي والتكنولوجي الذي شكّل تحديًا للدين زاد من حصره ضمن مجالات محدودة أكثر فأكثر، كما تبنت إيديولوجيات بلغت حد التطرف في مركزيتها و في توظيف آليات تكرس ذلك نحو كل ما يختلف عنها بأي شكل من الأشكال .

الخـــاتمة

إن للحضارة مكونات ومقومات وخصائص وحتى تصنيفات وأنواع ، لها مراحل أو دورات ، وكما لها بدايات لها أيضا نهايات، وفي جميع الحالات والأشكال لا يمكن القول على أثر علاقتها بحضارات أو اتفاقات أخرى وهنا يظهر مفهوم الصراع والصدام والذي نحاول تجاوزه بتعويضه بمفهوم الحوار والتواصل، حيث الهدف الأسمى من الحضارات والثقافات في الأساس الأول هو وإن اختلف العلماء والباحثون في كثير من الفروع وحتى الأصول المطروحة في موضوع الحضارة ، إلا أنهم يتفقون على كونها نتاج تراكمات معرفية إنسانية اجتماعية تصاغ بكيفيات معينة تخدم الإنسان.

لا يمكن بأي حال التكلم عن مجتمعات بعينها ونعتها بغير الحضارية لأن كل المجتمعات تدخل ضمن النطاق الحضاري غير أن الاختلاف يكمن في درجة تقدم هذه الحضارة وهذا ما يصنع الفوارق، وهنا نرجع إلى ما قدمه كل من مالك بن نبي وتوينبي فيما يخص الدورة الحضارية، وربما هذا ما يحيلنا مباشرة إلى وجود نظريات ومواقف تنادي بوجوب الحفاظ على التقدم الحضاري ولو على حساب الشعوب ، وهذا ما جعل طرح صامويل هنتغتن من رواد المنادين بصدام الحضارات والثقافات ... وبغض النظر عما جاء به إلا أنه يتضمن إقرارا بحركية الحضارات ودوراتها عبر الشعوب والمجتمعات، وأمام إمكانيات البعث الحضاري الواردة لكل الشعوب يصبح طرح الحوار الحضاري المخرج الآمن والبديل الأمثل لكل الشعوب والمجتمعات.

الهوامش

[1] عبد الكريم غريب وآخرون ، التواصل و التثاقف ، منشورات علم التربية ، الدار البيضاء "المغرب"، الطبعة الأولى ، 2010 ، ص 11 .

[2]- حسين مؤنس ،الحضارة ، عالم المعرفة ، الكويت،1978 ، ص 59-60 .

3- نفس المرجع ، ص 59.

4- محمد العبدة، مالك بن نبي مفكر اجتماعي ورائد اصطلاحي، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، 2006، ص 58.

5- فوزية برريون، مالك بن نبي "عصره وحياته ونظريته في الحارة"، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، 2010، ص 201.

6- نفس المرجع، ص 203.